لزوم الاستقامة وترك الركون إلى الظَّلَمة

ســؤال: يأمر الله تبارك وتعالى في ســورة هود بالاستقامة، ثم ينهى عن الركون ولو قِيدَ أنملة إلى الظَّلمة، فما الإشــارات التي يمكن أن نســتلهمها من هذه الآيات المباركة؟

الجواب: يقول الحقّ تبارك وتعالى:

﴿فَاسْـتَقِمْ كَمَا أُمِـرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَـكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَـا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

(سُورَةُ هُودٍ: ١١/١١٢).

هـذا أمـر للمسـلمين بالاسـتقامة موجه إلى شـخص رسـول الله ﷺ، فلنعدّه موجهًا إلينا أيضًا، وكأنّ الله تعالى يقول: "فاستقيموا أيها المؤمنون كما أُمرتم".

سرُّ توجيه الأمر للمفرد المخاطب ثم النهي للجمع

فـي هـذه الآية تبجيلٌ وتكريـمٌ للنبي ﷺ، وكأنّ الله تعالى يُشـيد بخُلُقه العظيم ويخاطبه بقوله: **﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾** (سُورَةُ هُودٍ: ١١/١١٢)؛ وهذا -ولله المثـل الأعلى- كما يعجَب الأبُ بحسـن أخلاق ولده الصغير واسـتقامته ويقول له: "ثابِرْ على هذا الدرب ما حييتَ"؛ ومن الخطأ جزمًا أنْ نفهم من الأمرِ التعريضَ بأنَّ سـيد السـادات صلوات ربي وسـلامه عليه قد انحرف عـن الجـادّة -حاشـا وكلّا- فجـاءت هـذه الآية تأمـره بالاسـتقامة؛ فالآية

لا تدلُّ على هذا المعنى لا منطوقًا ولا مفهومًا؛ فالاستقامة دأبه الدائم ﷺ في أقواله وأفعاله ومشاعره وخواطره؛ فمعنى الآية: "على هذا النهج الحسن دُمْ دائمًا"، وإلى هذا يشير النهي الوارد بصيغة الجمع بعد الأمر بصيغة المفرد: ﴿وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، والمتأمل لهذه الآية وأمثالها يجد أنّ القرآن الكريم إذا دعا إلى البرّ خاطب النبي ﷺ مباشرة بصيغة المفرد كقوله ﴿فَاسْتَقِمْ﴾، وأما النهي فيورده بصيغة الجمع كقوله: ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾؛ ويُستنبط من هذا أن المقصود بالخِطاب هو الأمة المحمدية، أما سرّ توجيه الخطاب لرسول الله ﷺ فذاك لأنّ لنا فيه أسوة حسنة.

وللنهي عن الطغيان بعد الأمر بالاستقامة مباشرة مغزًى عميق، وهو أنّ كلّ مَن ينحرف عن الاستقامة ينزلق رويدًا رويدًا في الضلال والطغيان؛ فلزم تحذير أهل دار الابتلاء من الطغيان إبّان دعوتهم إلى لزوم الاستقامة.

حذار حذار من الظلم بأنواعه كافة

أشار السؤال إلى الآية التالية:

﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ (سُورَةُ هُودٍ: ١١/١١٣).

وهذا نهيٌ عن الركون ولو قليلا إلى الذين ظلموا، وتحذير من القعود معهم؛ لأن مَن يركن إلى الظلم ويميل ولو قدر أنملة إلى الظالمين قد يتردّى شيئًا فشيئًا دون وعي في مثل هذا الغيّ، أي سينحرف بشكلٍ ما عن خطّ الاستقامة.

وأفاض القرآن الكريم في حديثه عن الظلم، فذكر ما يكون من الكفرة والمنافقين من ظلم وطغيان، وما يقترفه بعض المسلمين من آثام، يقول

تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (سُورَةُ الأَنْعَامِ: ٦/٨٢).

عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود ﷺ قَالَ: "لَمَّا نَزَلَتْ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ قَالَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ: أَيُّنَا لَمْ يَلْبِسْ إِيمَانَهُ بِظُلْمٍ؟ فَنَزَلَتْ ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (سُورَةُ لُقْمَانَ: ٣١/١٣)[٢٢]؛ سَرَّتْ هذه الآية عن المسلمين وأخبرتهم أن المقصود من الظلم المذكور في الآية هو الشرك بالله.

فمن الظلم انتهاك حرمات الله، والاستخفاف بأوامره، وصدّ الناس عن أداء التكاليف الشرعية، والتسبب في الفتنة والفساد، ومثل ذلك تجاهُل الحقّ والحقيقة، والتضييق على المسلمين واستهدافهم حسدًا وغيظًا، والحديث عن الحق والعدل دون السعي إلى إحقاقهما، والاعتداء على حقوق الخلق، واختلاس أموال الناس، واستغلال الرؤساء -أيًّا كانت مناصبهم- للمرؤوسين في مصالحهم الشخصية، ناهيك عن عدِّهم هذا الأمر حقًّا لهم عليهم.

ففي الآية أمر بتجنّب أنواع الظلم كافة، بل نهي عن الميل إلى الذين ظلموا.

ولا يفوتنا أن نذكر نكتة لطيفة في هذا المقام:

الظلم لا يعني الجور والطغيان فحسب، بل مِن الظلم أيضا محاباة أي مسؤول في أي موقع لأقاربه وأنصاره ومن كان على نهجه، وأكل أموال الناس ولو شروى نقير.

ودلت الآية الكريمة أنّ الميل إلى الظالم -أيًّا كان مستوى الميل-

(٢٢) صحيح البخاري، أحاديث الأنبياء، ٤١.

يوجب النار؛ فدخل في عموم النهي ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ مجالسة الظالمين وتجاهل ظلمهم وغبطتهم وتمني المرء أن لو كان مكانهم؛ كيف والحق تعالى يقول:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ (سُورَةُ الأَنْعَامِ: ٦/٦٨).

فهذا أمر بالانصراف عن مجالس الظالمين ممن تلوك ألسنتهم بذيءَ الكلام ازدراءً لقيم جديرة بالتبجيل والتقدير.

أجل، بينما الحقّ ﷻ يرشد المسلمين إلى الاستقامة وينهاهم عن الطغيان، حذّرهم من الميل إلى الحيف والظلم.

إنّ مَن اتخذ الاستقامة أساسًا لنيته وحياته وكلامه وتصرفاته وأفعاله سيثور على الظلم والبغي؛ وفي كتاب الله آية تتحدث عن ثواب مَن يتجنبون الظلم بأنواعه كلّها وهم على خطّ الاستقامة ماضون، يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (سُورَةُ فُصِّلَتْ: ٤١/٣٠).

سؤال: لماذا يميل المرء إلى الظالمين؟

الجواب: لعلّ للركون إلى الظلم والذين ظلموا أسبابًا عدّة؛ فقد يتغاضى المرء عن الظلم ويصفقّ للظالمين، والتاريخ شاهد على أناسٍ تعساء صفقوا للظلم واستحسنوا عمل الظالمين خوفًا على مقاماتهم ومناصبهم؛ وسيأتي قوم يكيلون الثناء للظالمين كيلًا حرصًا على مناصبهم

ومـا فيهـا من رفاهٍ؛ أجـل، إنّ حبّ المنصب جرثومة فتّاكـة تُخضِع المرء للظلمة.

ومـن أسـباب ميل الإنسـان إلـى الظالمين حـبّ التمجيـد والمديح، والشغفُ بالرفاهية، والولـع برغد العيش، والتعلّق المفرط بالأهل والبنين؛ نعـم، لن ينفكّ عن الترحاب بالظالميـن أبدًا مَن همّه ذووه وبنوه وأحفاده وذريته، ومنتهى همته قصرٌ في أعالي الجبال أو شـواطئ البحار، والتمتع بهذا المكان شتاءً وبذاك صيفًا، وقد يحسب مثلُ هذا أنه على طريق الحقّ ماضٍ وهو يسـير على مزلاج سـرعان ما ينزلق منه ويخسـر حيث تُرجى النجاة.

وما أكثر الأسباب والجراثيم في هذا الصدد! وكلٌّ منها نافذة مفتوحة علـى الظلم، فمَن وارِبَ بابًا منها ألفى نفسـه في مسـتنقع الظلم؛ فليباعد المـرء بينـه وبيـن الظلم وسـبله أميـالًا؛ فـ"سـدُّ الذرائـع" المعـروف لدى الأصوليين واجب ههنا، فليُغلِق الإنسـانُ بـل فليُوصِد منافذ الضعف التي تسوقه إلى الظلم كالخوف وحبّ المنصب والشغف بالتهليل والمديح؛ إذًا علينا أن نتجنّب بدايةً الجراثيم الفتّاكة الباعثة على الميل للظلم والظالمين كما نتصدّى للأمراض فنتقي الجراثيم المعدية بالتَّماس، وهذا هو الطريق الأسلم، وكل سبيل سواه قد يفضي بالإنسان إلى الحيف والظلم من حيث لا يـدري، وهذا يعرّضه لمزيد مـن الحرمان؛ ففي فاصلة الآية الكريمة أنّ من يميلون إلى الظلم ما لهم من دون الله من أولياء ثم لا يُنصرون؛ وذلك لانقطاع صلتهم بربهم سبحانه وتعالى.

وأريـد أن أذكـر في النهاية مسـألة أخرى: يقـول الله تعالى عقب هذه الآية الكريمة التي تنهى عن الركون إلى الذين ظلموا:

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ (سُورَةُ هُودٍ: ١١/١١٤).

وللأمر في هذه الآية مغزًى عميق: إن التناسب بين هذه الآيات يُظهر أنه طالما استطاع الإنسان أن يتخلى عن الإسلام الصُّوري وأن يقيم الصلاة بأركانها الظاهرة والباطنة، فقد أمِنَ من الركون إلى الذين ظلموا ومن استحسان أفعالهم.

إنّ الورد مَنبتُه الترابُ

سؤال: يَستعمل اللهُ تعالى أحيانًا بعضَ الناس في أعمال ومناصب متنوعة، ثم إذا بهم يحسبون أنفسهم أفضل وأعلى من غيرهم، فما الأمور اللازمة في موقف كهذا؟

الجواب: على من خلقه الله من ماء مهين أن يجيش قلبه بمشاعر الشكر والمنّة والتواضع والمحو والفناء عندما تهطل عليه نعمُ الله تعالى غَدَقًا، وعليه أن يرى نفسه أدنى من الآخرين أيًّا كانت مكانته، وأن يقولَ كما قال "إمام ألوار":

كلُّ عبدٍ هو قَمْحٌ وَحَسَن
وَوَحْدِي أَنَا التِّبْنُ وَوَحْدِيَ الْقَبِيحُ

وإن شئتم فأطلقوا على هذه الرؤية تواضعًا أو محوًا أو نكرانًا للذات، فالحقيقة أن الوجود كفسيلةٍ تتمدد وتنمو في ثنايا هذه الرؤية.

كان من الممكن أن يسقط نَيزَكٌ

ما أجمل قول الشاعر:

والبذرُ في التُرْب إنْ لم يُدفنا   أنَّى يكونُ لفيض ربِّك مَظهرا
والمرء إن كان لربِّك مُخْبِتا   فبرحمة الرحمن فضلًا قد سَما

أي إن البـذرة إن لـم تُدفن في التراب، وتستسـلم للعفـن والفناء فلن تُنبِت السنابل؛ فهي لن تُنبِت إلا إن انسحقت تحت التراب، فصارت ترابًا وفنيت عن ذاتها.

أجـل، لا بدّ أن تفنـى البذرة لتنبعث من العدم وتصبـح خلقًا جديدًا؛ وهكذا فليعدَّ كلُّ امرئ نفسه أيًّا كان موقعه في الحياة الاجتماعية؛ ومَن لم يفكّر إلا في هذا السـبيل فلن يخسـر بمشيئة الله حتى في أشدّ الابتلاءات؛ لأنه وطَّنَ نفسـه علـى هضم النفس، لا يطرب بالانتصارات ولا يستسـلم للتضييق والهجوم والإهانات؛ نعم، إنّ مَن يرى نفسه كالبذرة تحت التراب لا يأبه بمن يسير فوقه، لكن من يرى لنفسه منزلة بأي وجهٍ قد يضيق ذرعًا حتـى مـن أجل أتفه الأمور، ويسـتوحي أمـورًا يقرؤها في نظـرات الناس وإيحاءاتهم وتجهُّم وجوههم بل في ابتساماتهم أيضًا، ويعدّها استخفافًا به وتفريطًا في تقديره تقديرًا يليق به.

أجـل، إنَّ مَـن يضـع نفسَـه فـي منزلةٍ مـا، إن لـم يَلْق مـن الآخرين ما يتوقعـه مـن المعاملـة فقد يسـتنبط تأويلات سـلبية من أي شـيء، أمَّا مَن تحصن بحصن المحو وتخلَّق بالتواضـع ووضَـع نفسَـه تحت الأقدام فلن يؤذيه ما يوجَّه إليه من إهانات وتضييق وضغط؛ فهو لا يضيق ذرعًا بذلك بل إنه ليرى نفسه من أهل هذه السلبيّات، ويستغل هذا الموقف لمحاسبة جديدة لنفسـه، فمثلًا لو سـقطت جوزة على رأسه لقال: "كان من الممكن أن يسـقط نَيزَكٌ بسـبب وضعي الحالي"، ويؤمن بأنّ وراء كل حادثة كثيرًا مـن الحِكَـم والمصالـح؛ لأن الله تعالى له في كل شـأن حكمةٌ، ولا يفعل شيئًا عبثًا.

هـذا وقد أصبح للتواضـع والمحو والحيـاء أهميةٌ عظمى في الدعوة إلى الله خاصة في هذا العصر الذي طغت فيه الأنانية.

تأملوا الوردة تجدوها تَنبت في التراب، ولا تنبت في الزمرّد أو المرجان أو الياقوت أو الذهب أو الفضة، رغم القيمة الثمينة لهذه الجواهر التي تُخلق بمشيئة الله في باطن الأرض وقاع البحار، بل إن ورد الورود صلوات ربي وسلامه عليه قد نبت في التراب؛ أجل، إن أمه الطاهرة وأباه وأجداده أيضًا من تراب، فلنكن كالتراب إذا ما شئنا أن نكون منبتًا للورد.

التخلص من الأنانية

إنّ اتباع نهج السنة المطهّرة في علاقتنا بالناس له بالغ الأهمية لئلّا نرى أنفسنا متميزين عن غيرنا، ولتغدو خصلة المحو والتواضع والشعور بها خصلة رئيسة في طبيعتنا الإنسانية؛ فمثلًا يقول مفخرة الإنسانية محمد ﷺ:

"**أَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا** (وفي رواية: **مُؤْمِنًا**)"[٢٣].

إذًا مَن رقّت مشاعره واتّسع فكره ووجدانه حتى أحبّ للآخرين ما يحبّ لنفسه فإنه مسلم ومؤمن حقًّا؛ ونقيضه لو أن إنسانًا لم يحبّ لغيره ما أحبّه لنفسه، ويريد لغيره ما لا يريده لنفسه فقد خرج عن البيئة الوقائية للإيمان الحقيقي، ومشى على أرضٍ زَلجة قد ينزلق عنها ويتدحرج في أي آن.

هذا وعلينا في الوقت نفسه أن نحمل أفعال الآخرين بل وحتى تصرفاتهم التي لا نستسيغها على محمل حسن، ونقولَ في أنفسنا: "لعل ثمة مصلحة لا أعرفها بنى عليها هذا الإنسان تصرفه، ولعل لديه فكرة انطلق منها ولم أستطع أن أدركها، ورُبَّ حكمة دعته للقيام بهذا التصرف الذي لا يروق لي"؛ أي علينا أن نُحسن الظن بتصرفات الناس ما استطعنا، تلك التصرفات التي تبدو خاطئة في الظاهر، إلا أنّها تحتمل تأويلًا

(٢٣) سنن الترمذي، الزهد، ٢.

معقولًا، وقابلة للتفسير والتأويل؛ وهذه النظرة تجنّبنا سوء الظن بالناس وتحملنا على حسن الظن بهم؛ هذا فضلًا عن أنها تحفظنا من أن تتحكم أنانيتنا في كلّ شيء.

عندما يغدو التواضع فطرة

لن تغدوَ هذه الخصال أمورًا فطرية إلا إذا أدركنا أنّا بحاجة إلى إعادة تأهيل حسّاسة، فلنلجأ أولًا إلى اسم الله "الرب" لنقضي حياتنا في كنفه ورعايته، وليكن لدينا عزم وإقدام على أن نصبح ممّن يشملهم سبحانه وتعالى بتربيته ورعايته، بل علينا أن نحاسب أنفسنا كل يوم عدة مرات لنرى أين نحن من مبادئ الدين.

وهذه المسألة تقتضي المداومة والثبات، يقول سيدنا رسول الله ﷺ: **"أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ"**(٢٤).

ومعلوم أنّ تتابع قطرات الماء يؤثر حتى في الصخر ويثقبه؛ أجل، ليست قوة الماء هي التي تؤثر في الصخر بل ديمومة القطرات، فالمواظبة على إعادة التأهيل والتربية وحضور مجالس ذكر الله ﷻ من أهم ما ينبغي أن نراعيه في هذه المسألة.

ومن قبلُ كانت التكايا والمدارس تشمل كلّ الحياة، فقامتا بهذه المهمة معًا في تساند وتعاضد في فترة ما، وكان روّادهما الذين أسلموا أنفسهم إليهما يبلغون مستوى الإنسانية الحقّة بالمجاهدة وتربية النفس وتطوير قابلياتهم العقلية والقلبية والروحية.

(٢٤) صحيح البخاري، الرقاق، ١٨؛ صحيح مسلم، صلاة المسافرين، ٢١٨.

أجل، إن هذه الأماكن المباركة كانت تهدي روادها إلى سبل السير في آفاق القلب والروح والسرّ، بله فتح العقول لتعلّم المسائل العلمية؛ نعم، لو دُرسَت هذه المسائل في دائرة العقل فحسب لقبعت في قوالب ضيقة من مفاهيم العقليين والمعتزلة، وقد يتعذر القول بأن من ساروا اليوم على هذا الخط -رغم سعة الإمكانيات- قد جرّوا أي نفع للناس، أما من يناجون قلوبَ الناس حقًّا فأولئك هم الذين يواصلون معراجهم في أفق القلب والروح.

بكاء القلوب الحزينة

سؤال: يُقال: قد يتغمد الله تعالى العالَم كله برحمته ببكاء قلبٍ حزين؛ فلِمَ لا تشعر قلوبنا بما ينبغي أن تشعر به من همٍّ وحزن؟

الجواب: الإنسان هو مصدر كل مشكلة يمر بها الفرد أو الأسرة أو المجتمع من لدن آدم عليه السلام إلى يومنا هذا؛ وهو أيضًا عنصر أساس في الأزمات والفتن والظلم والفوضى اليوم، ولما كان الإنسان مصدر كل مشكلة فلا يمكن حل المشكلات إلا بإعادة صياغة الإنسان من جديد بأسلوبٍ مِداده الوحي والوجدان، فإن لم نفعل ذلك تعذر منع البغي والضلال والسفه والبؤس على وجه البسيطة.

أن يدرك الإنسان أنه في قاع البئر

يُعَدُّ إهمالُ الإنسان أعظمَ مشكلات البشرية اليوم، لكن مَن منَّا يا تُرى يشعر بهذه المشكلة في أعماقه ويغتّم لها ويتكدّر؟ إننا بكلّ أسفٍ لا نستطيع أن ندرك حجم هذا السفه والبؤس ومقدارهما، وذاك السقوط والانحراف الذي يخرّب كل البسيطة؛ لأن معظمنا يعيش الجو نفسه والبيئة عينها.

وإليكـم مثـالًا يبيـن المراد: أقمتُ مـدة في المدينة ثـم زرتُ أخواليَ في القرية، وما إن دلَفت إلى الباب حتى شممت رائحة الروث المحروق، فقلـتُ: مـا أخبثها من رائحة! فأخذ أحفادُ خالـي يضحكون؛ لأنني أقمت في طفولتي ما يقرب من شـهر في هذا البيت، ولم أشـعر فيه إذ ذاك بأيِّ ضيق أو إزعاج.

وجـاء في كتاب المثنوي لمولانـا جلال الدين الرومي أنَّ رجلًا عمِلَ عنـد دبّـاغٍ، فألِـفَ رائحـةَ الجلـود المسـتقذرة واعتادها، فلما زار سـوق العطارين وتنسّم الروائح الزكية سقط مغشيًّا عليه.

يصف مولانا جلال الدين الرومي بهذه الحادثة حال الطبائـع الفاسدة؛ أجل، أصبحنا نرى مناظر تُخجِل الإنسانَ من إنسانيته ولا نشعر بأي خجل أو ألـم، ويكأننا نرى كل السـلبيات من الأمور العاديـة؛ وما ذلك إلا لأننا نشأنا في هذه البيئة وألفناها وانسجمنا معها، كما قال الشاعر:

إذا ما شبعتُ حسبتُ الناس شَبْعَى

وذو عَوَزٍ يخالُ الكونَ قَفْرًا

فإذا لـم نشعر بالآلام ونحس بها فإن قلوبنا لن تنكرها ولن تبحث عن سـبل الخلاص منها؛ لأن الإنسـان يصطبـغ بظروفه وبيئته، فتتأثر حواسـه جميعًا بتلك الصبغة، بل تؤثِّر على دماغه أيضًا؛ فيكون إحساسه بكلّ شيء وتقييمـه لـه مرهونًا بحالته هذه، وليس بمقدوره الخروج عنها قِيْد شـعرة، فيتعـذر عليـه أن يُـدْرِك أن هناك مقامًا ربّانيًا قد تخلّـف عنه وكان عليه أن يَبْلُغَهُ، ويظنّ أنه يَجُولُ في مناخٍ مفعم بالفرح والسرور والحالُ أنه في قاع البئر؛ لذا لا يحاول أن يخرج منها.

أجل، إنَّ الإنسان بمقتضَى فطرته يتآلف مع بيئته بعد مدة معينة؛ فلو أن إنسانًا عاش في مكانٍ صاخب فلا ريب أن أذنه ستألف هذه الأصوات بعد مدة؛ ثم يتعذر عليها أن تشعر بذبذبات كان ينبغي أن تسمعها؛ وعلى هذه الشاكلة نحن، فمنذ أن تفتحت عيوننا على الدنيا كنا نرى أناسًا يلهثون وراء لذّاتهم ومتعهم ولا يكترثون لشيء وهم سعداء بذلك؛ ولذا لم نستطع ألبتة أن ندرك حالنا البائس المؤسِف.

إن الهمّ مصدرٌ مهم للإلهام؛ فهو يوحي للإنسان بكثير من الطرق والسبل المتنوعة للخلاص من الحال الخانق الذي يعيشه، فمثلًا لو سقط إنسان في بئرٍ، وأدرك أنه في القاع، فاغتمّ وتكدر لذلك، وبحث عن مخرج من هذه البئر، فسيجد بفضل الله وعنايته مخرجًا، وسيخرج؛ حتى وإن لم تكن في يده مجرفة أو معول فسيتخذ من يديه مخلبًا ليحاول الخروج، ويظل يكابد ويقاسي حتى يشقّ تجويفين في ناحيتي البئر يضع عليهما قدميه، فإذا استقلّ على قدميه شقّ تجويفين آخرين؛ وبمثل هذا السعي والتخطيط سينجح ويخرج من قاع البئر؛ لكن مَن لا يُدرك أنه في القاع، ويرضى عن حاله، فلا شك أنه لن يسعى إلى الخلاص مما هو فيه ألبتة.

حالة الاستضعاف تستنزل الرحمات

ولو أنَّ الإنسان استشعر الهمَّ والقلق تُجَاه التردي والانحراف الذي يعيشه وتوجَّهَ كليةً إلى ربِّه ﷻ لتجلّى له -كما قال الأستاذ النورسي رحمه الله في كتابه "اللمعات"- سرُّ الأحدية من خلال نور التوحيد الخالص إذا ما انقطعت الأسباب بالكلية.

ومعلوم أن سيدنا يونس بن متى عليه السلام لما ابتعله الحوت اجتمعت عليه ظلمةُ بطن الحوت وظلمةُ أعماق البحار وظلمةُ الليل الحالك، فتوالت

عليـه الظلمـات وأحاطت به من كلّ مكان، فتضرع هـذا النبي الكريم إلى ربه ﷻ قائلًا: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُـبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (سُـورَةُ الأَنْبِيَاءِ: ٨٧/٢١)، فاسـتمطر بذلك الرحمة الإلهية، ونجا من بطن الحوت؛ رغم أنّه كان يكابـد ظلمـاتٍ ثلاثًا بعضُها فـوق بعض؛ يقول إبراهيـم حقي[٢٥] رحمه الله في هذا المقام:

تَرى كلَّ حجاب ينكشف بغتةً إذا تَقَطَّعت بك السبل

ولكلِّ آلامنا لدى المولى دواء أفعالَه فلْنرتقب فما أجمل كل ما فَعَل

والآن انظروا إلى حالنا البائس اليوم، وقولوا لي بربكم: ألسنا في حالة أشـدّ من تلك التي كان عليها سـيدنا يونس بن متى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام عندما كان في بطن الحوت؟

يصف الأستاذ النورسي هذه الحالة فيقول: "إن نفسنا هي حوتنا"، أي إن أنفسنا هي التي تبتلعنا اليوم، فها نحن نلهث وراء الدنيا وأصبحنا أسرى لهوى النفس، والأنكى من ذلك أننا لا نعي أنَّا قد تردينا إلى تلك الحالة؛ لـذا نبـدو كأننـا بلا حـسّ ولا قلب ولا ضميـر تُجاه ما يقـع في مختلف أرجاء العالم اليوم من ظلم وجور وبغي؛ فلا بدّ إذًا أن نسـأل أنفسـنا: "أين كنّا، وأين أصبحنا؟"، ثم نحاول أن نعقد صلة بين عصرنا وعصر السعادة، فنقـارن بين هذين العهديـن؛ بل ينبغي أن تمتد أنظارنا إلى عصر الأيوبيين والزنكيين والسـلاجقة والعثمانيين، تلك العصور التي اقتبسـت نورها من عصر السـعادة، لنتعرف على أصحاب هذه العصور الأقوياء ذوي الإرادة والعزيمة أمثال: صلاح الدين الأيوبي، ونور الدين زنكي، وآلب أرسلان، والملك شاه، وقليج أرسلان، والسلطان محمد الفاتح، ثم نفكر كيف ردّ

(٢٥) إبراهيم حقي (؟ – ١١٩٤هـ/١٧٨٠م): عالمٌ تركي جليل وزاهدٌ متصوف، عاش في القرن الثاني عشر الهجري، له عدة مؤلفات أشهرها "مَعْرِفَتْنَامَه".

وقاوم هؤلاء عدوانَ هذا العالم الوحشي عديم الرحمة، وما الوصفات التي وضعوها لمشكلات كادت عقولهم تنفجر من كثرة التفكير فيها؟

أجل، علينا أن نقارن بين عصرنا وهذه العصور الزاهرة لنتأمل حجم حالتنا البائسة وشناعتها؛ وأظنُّ أن تفكيرًا كهذا سيقودنا إلى طرْق باب رحمة الله ﷻ حتى نستشعر الألم ونجد الدواء، ويدلنا ﷻ على سبل النجاة والخروج من حالة الشؤم هذه؛ أما من رأى هذه الحالة الشنيعة أمرًا مألوفًا فلا سبيل له للوصول إلى سبلٍ بديلة أو طرق جديدة للخلاص.

بذور الهموم التي تنتشر في القلوب

لا يمكن للإنسان أن يكون محمَّلًا بالهموم والمكابدة إلا بعد أن يتعرفَ العصورَ الذهبية التي كان يُطبَّق فيها الإسلام على أحسنِ وجهٍ، ويُدركَ ما مُنِيَ به المسلمون اليومَ من ذُلٍّ ومسكنة.

وفي مثل هذا المشهد يُعرِب الأستاذ النورسي عن همِّه وقلقه بما معناه: "ليس عندي وقت أضيّعه في التفكير فيما يعرِض لي من تعب ومشاق؛ ليته حلّ بي ألف ضِعف من هذا العناء ويسلَمَ مستقبلُ قلعة الإيمان"؛ وذكر رحمه الله أنه راضٍ بالتقلّب ولو في نار جهنم إذا ما كان إيمان الأمة في أمن وسلام؛ وهذه المبادئ هي من مقتضى كونك إنسانًا حقًّا؛ فلو أنَّك إنسانٌ حقًّا ورأيت البشرية تسلك طريقًا إلى جهنم، فلا بدّ أن تصيبك الرعشة والرِّعدة أمام هذا المشهد؛ والحقيقة أنّه قد لا يستشعر كل الناس هذه المسائل بهذا القدر من سموّ الضمير.

وقد لا يكون من المناسب أن يتعرف الجميع على كل مشكلة وكل قضية؛ لأن منهم من لا يتحمل فيروس نزلة برد خفيفة ويموت به، أما ذوو الجهاز المناعي القويّ فإنهم إذا ما هاجمتهم الجراثيم نفسها لم يهتزوا لها

إلا لِمامًا، وليس لكل من يسعى في الخدمة الإيمانية والقرآنية جهاز مناعةٍ على نفس المستوى؛ لذا فلو أنكم حدثتموهم عن الآلام والمشكلات كلها فلربما حطّم ذلك قواهم المعنوية؛ أجل، قد يقع هؤلاء في اليأس والقنوط إذا حدثتموهم عن شيء من المشكلات الخطيرة.

دعوني أَبوح لكم بمشاعري: لو أن آبائي وأجدادي أحياء وماتوا فجأة معًا، فوالله إن ألمي من أجلهم لا يبلغ ما أشعر به في نصف يوم من همّ وألم من أجل مستقبل الإسلام؛ حتى إنني أخرج أحيانًا من غرفتي ليلًا وقد قصم ظهري القلق والهم، فأغدو وأروح في الممرات كالمجنون، ورغم هذا أتحاشى في أحاديثي ذِكر ذوي المقاصد الخبيثة ممن يكيدون ويسعون بالدسائس والمؤامرات وغدَوا كالبعبع يخوّف الناس بهم في كل مكان؛ لأن مثل هذا الأمر قد يوقع الناس في اليأس ويضعف عزيمتهم؛ لذا أحاول أن أُخفيَ عن الناس ما بي من غمٍّ وكدرٍ، وهمومٍ وأحزانٍ.

ولو أني أعلم أنهم قادرون على تحمّل الآلام والمشكلات لأوقدتُ الجمرات ونثرتُ بذور الهموم في قلوب كل مَن تبلغهم كلماتي ليتألموا بآلام البشرية، فيجافي النوم عيونهم ويأخذوا في التجوال هنا وهناك كالمجانين حتى يجدوا الدواء الناجع؛ وقد قيل: "لا يكمل إيمان أحدكم حتى يقال إنه لمجنون"؛ أي إنه لا بدّ عندما ينظر الآخرون إلى حالكم أن يقولوا: لماذا يُشغَل هؤلاء بهذه الأعمال وكان بوسعهم أن ينعموا بكل ما في هذه الدنيا الفاتنة من بساتين وحدائق وزهور مونقة وجو ماتع بديع؛ إن مثل هذا الجنون لهو -كما يقول يونس أمره[٢٦]- تعبيرٌ عن بذل العبد كلّ ما يملكه في سبيل الله.

(٢٦) يونس أَمْرَه (؟ – ٧٢٠هـ/١٣٢٠م): شاعر تركي شعبي وزاهد وصوفي، ترك أثرًا كبيرًا في الأدب التركي منذ وقته إلى عصرنا هذا.

وهـل يصــح أن نقـول: إن من لم يكن هكذا فقد خاب وخسـر؟ معاذ الله، فقد أخبرنا صاحب الشريعة ﷺ أن "**مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّـةَ**"(٢٧)؛ فليـس أحد منّا نائبًا عامًّا، وليس لأحـد أن يصادر على دخول أحـد الجنة، فهذه مسـألة أخـرى، أما ما نحن بصدده فهو مسـألة احتضان البشرية بأسلوبٍ نبوي، والاغتمام والتكدر من أجل ما تعانيه الإنسانية من مشكلات والتفكير في إيجاد الحلول لها.

(٢٧) صحيح البخاري، العلم، ٤٩؛ صحيح مسلم، الإيمان، ١٥٢.

الاتزان والاعتدال

سـؤال: عصرنا هذا فيه انحرافات فكرية خطيرة في كل سـاحات الحياة تقريبًا، وتقع فيها ألوان من المغالاة، فما الذي ينبغي مراعاته حتى لا يقع منا إفراط أو تفريط في هذا الصدد؟

الجـواب: إن الاتزان والحفاظ على الاعتدال أمر مهم للغاية لنتمكن مـن أن نجعل الدين حياةً لحياتنـا، ونطبقه كما يريد الله؛ ذلك أن الانزلاق إلى الإفراط أو التفريط إنما يكون حين يُفتقد الاتزان، وعندئذ تتكون دائرة فاسـدة؛ إذ إن الإفراط يولّد التفريـط، والتفريط يولّد الإفراط؛ والواقـع أن السبيل إلى السلامة من الإفراط والتفريط هو اتباع سنة مفخرة الإنسانية ﷺ الهادي إلى الصراط المستقيم، فهو من كان يوصي أمّته دائمًا بالاعتدال.

الصراط المستقيم

يُعرَّف الصراطُ المسـتقيم في منظومة الفكر الإسلامي بأنه اعتدالُ كلٍّ مـن "القـوة الشـهوية"، و"القوة الغضبيـة"، و"القوة العقليـة"، فاعتدال هذه القوى جميعًا يعبّر عنه بـ"الصراط المسـتقيم"؛ وثمة أمور أخرى كثيرة مثل المنافسـة والتنافـس والنيـة والنظر وغيرهـا يمكن وزنها بهـذا الميزان، أو فلنقـل: إنّ لـكلّ ما جُبل عليه الإنسـان من طباع -حسـنة كانت أم سـيئة- صراطًا مستقيمًا.

مثـال ذلـك "النظـر"، ومعنـاه قـراءة الأشـياء والحـوادث وتقييمهـا، فالناظـر المتفائل يمثل الإفراط، والمتشـائم يمثل التفريـط، أمّا الناظر إلى حقيقـة الأمـور فهو وسـط بينهمـا؛ ومعلـومٌ أن المتفائل هو مـن يتغاضى عن الشرور والشناعات ويتناول كل شيء من منظور حسن جميل فحسب، أمـا المتشـائم فهـو من يرى كل شـيء سـيِّئًا حالكَ السـواد، وأمـا الناظر إلـى الحقيقـة أو الناظـر بالهُـدى فإنـه يسـعى ويجهد كي يرى كل شـيء على حقيقته؛ والواقـع أن "مَنْ حسُـنت رؤيتُه حَسُـنتْ رويّتُه وجمُل فكرُه؛ ومـن جمُـل فكرُه تمتَّـع بالحياة وعاش حياة طيبة" كما ذكر الأسـتاذ بديـع الزمان في "نوى الحقائق".

هـذا ويلـزم -حتى في الأشـياء المسـتقبحة- العناية بالأفـكار الطيبة، والتقييمات الجميلة طالما أمكن التأويل، لكن هذا لا يعني تجاهل الواقـع، والعيـش فـي عالم الخيال والأحلام؛ إذًا ما ينبغي فعله هو رؤية كل شـيء كما هو دون هروب من الحقائق ولا تجاهلٍ لها، ودون الوقوع في تشاؤم أو يأس، وهذا هو الاتزان في "النظر".

والواقـع أنّ النفس المسـتقرّة في ماهية الإنسـان، التي تبدو كأنها شـرٌّ في الظاهر تصبح خيرًا له إن استقام على الصراط المستقيم؛ بل إن الشيطان الـذي يُضِلّ الناس ويفتنهم بوسوسـته وتزيينـه، إن وَعَيْنا الحكمة من خلقه فربما يكون ذلك دافعًا للمرء لأن يتوجه إلى الحق تعالى دائمًا ويلجأَ إليه؛ أمَّا إذا ما نُظر إليه -والعياذ بالله- كأنه قوة مستقلة، فمعنى ذلك أنه قد نُسبت إليـه قوة وسـلطة وهْمية كتلك التي يتوهّمها قـومٌ في النور والظلمة -وهذا هـو الضـلال-؛ فهم يدّعون أن كلًّا منهما مصـدرُ قوة قائم بذاته، وأنّ النور لا ضـرر منـه، وأنه يتعين إسـعاد مـن يمثلون الظلام؛ فهم مـن أجل إثبات هـذا الفهـم المعـوجّ يحملـون أوزارًا لا يبلغها عقل ولا خيـال؛ وقد عمَد

عبدة الشيطان أبناء الفلسفة نفسها إلى استرضاء الشيطان ليتقوا شرّه كما يزعمون؛ نعم، من الإفراط أن ننسب لمخلوقٍ عاجزٍ -لا سلاح له ولا سلطان علينا إلا الوسوسة والتزيين- قوى وقدرات لا تكون إلا للخالق، ومن التفريط أن نتغافل عن همزه ولمزه، ونستهين بوسوسته وتزيينه، بل إن في هذا تجاهلًا لهدي الكتاب والسنة وإعراضًا عنهما؛ وذلك أنَّ الشيطان عدوّ مبين للإنسان، فإن ظل الإنسان غافلًا ولم يُعطِ إرادَته حقَّها فقد يخسر سعادته الأبدية على يد ذلك المخلوق الغدّار المكّار.

ضحايا النجاح

كما أنَّ التوازن مهمٌّ للغاية في توقّي ما هو شرّ مُهلك هو مهمٌّ كذلك في توخّي الحذر إزاء ما يُساق إليك من خيرٍ، أي كما ينبغي التوازن في استغلال المشاعر الجانحة إلى الشر وتوجيهها نحو طريق الخير، ينبغي أيضًا لزومُ الصراط المستقيم وتجنب الإفراط والتفريط في أعمال البدن والروح في الإيمان والعبادة والأخلاق؛ فمثلًا لا بدّ للمرء أن يتحرّى الدقة والكمال في كلّ ما يقوم به من عبادات وأعمال من صلاة وزكاة وصوم ودعاء وكذا التفكّر والذكر والتدبّر؛ لأن الله تعالى يقول في كتابه الحكيم: ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ**﴾ (سورة التَّوْبة: ٩/١٠٥)، فهذا أمرٌ بأداءِ الأعمال على الوجه الأكمل أداءَ من يعلم أن أعماله معروضة بين يدي الله ورسوله والمؤمنين أرباب البصيرة.

والخلاصة أن على المرء وهو يؤدّي أي عبادة أن يكون شغله الشاغل "يا ترى! هل أدّيتها كما ينبغي؟"، وأن يسعى دائمًا إلى الكمال، وينبغي أن لا ينسب النتيجةَ إلى نفسه أبدًا ولو أدّى عباداتِه على أكمل وجه، وألا يغترّ ويسيء الأدب بين يدي ربّه بأن ينسب الفوز والنجاح إلى نفسه؛ لأن الله تعالى هو خالق النتيجة.

وهكـذا فـإن كان من التفريـط التقصيرُ في أداء العبـادات والتكاليف، وأداؤها في غفلة وفتور بلا عناية أو اهتمام؛ فمن الإفراط اغترارُ المرء بما بذله من جهد فيما قام به، وتجاهُلُه لتوفيق الله له بنسبته النتيجة إلى نفسه، فهو بذلك يسـيء الأدبَ بين يدي الله تعالى؛ فُيرجف إيمانه ويُودي بنفسـه في أودية الشـرك والنفاق؛ فهو وإن بذل بادئ الأمر جهدًا عظيمًا وتحرى الدقّة والكمال في عمله، إلا أنه اسـتغلّ في النهاية ما حققه من نجاح في الشهرة والسّمعة.

وحقيـقٌ بمـن نجـح وتفـوَّق في عمـل عمله في سـبيل الله أن يتّسـم بالتواضـع والمحو والحياء، وأن يردّد كما يقول محمد لطفي أفندي:

هُوَ أَمْرٌ فَوْقَ حَدِّي وَأَنَا عَبْدٌ ضَعِيفٌ لَسْتُ أَهْلًا للكَرَمْ!

فَلِمَاذَا كُلُّ هَذَا اللُّطْفِ وَالإِحْسَانِ؟

أجـل، على الإنسـان أن يؤدي ما يقوم بـه على أكمل وجه، وأن يحقّر نفسـه ويذلّها كما يضرب الدبّاغ الجلد بالأرض يهذّبه ويحسّنه؛ وعليه ألا ينسـى أبدًا أن ما أحرزه من فوز ونجاح قد يكون ابتلاءً واسـتدراجًا، وأن يخشى دائمًا الضلالَ والهلاكَ.

انظـروا، لقـد ظهر مَن يدّعي النبوة أمثال الأسـود العَنْسِـيّ ومسـيلمة الكذاب في عصر أضاء فيه النور الحقيقي كلَّ مكان، وأَفَلَت دونه الشموسُ والأقمـار، فهـؤلاء البؤسـاء كانـوا ضحايا لقـدرات ومهارات اكتشـفوها في أنفسهم، فانسحقوا وهلكوا تحت براثن الكبر والأنانية.

دعاوى المهديّة في عصر الأنانية

لا جـرم أن هـذا الضرب مـن الزيـغ والضلال لا يختـص بعصر دون آخر، فقد وقـع على شاكلتها كثيرٌ في كلّ عصر ومصر؛ وفي عصرنا أناس

مفوَّهـون إلـى حـدٍّ ما، تراهم يدبّجون شـيئًا في سـطر أو سـطرين، وربما قطعوا مسـافةً يسيرةً في المجاهدة، ثم إذا بهم يضيّعون التوازن ويحاولون أن يجعلوا من أنفسـهم قِبْلة وبوصلـة، ويقومون ويقعدون بـ"الأنا" و"حبّ الذات"؛ ولما رأوا السُذَّج من الناس يتحلّقون حولهم رغم ضآلة ما قاموا به ظنوا أنفسهم أقمارًا تهدي السالكين، وكأنّ هذا هو السبب في كثرة من يدّعـون المهديـة في زماننا، أعرف منهم خمسـة أو سـتة في تركيا، ومنهم ثلاثة أرادوا أن يلتقوا بي.

جاءني منذ فترة يسـيرة شـابٌّ في الثانية والعشـرين من العمر، وقال: "أسـتاذي، كنتُ أحسب نفسي حُسينيًّا فقط، ثم ثبت بالدراسة والتمحيص الدقيق أنني حَسَنِيٌّ أيضًا"؛ فتحدثتُ إليه عن المحو والتواضـع، وأنّ التكبّرُ وحـبّ الظهـور أمارة الصِغار، أمـا العظام فأمارتهم الانحنـاء تواضعًا كما العصا.

وبعدما ذكرتُ له ما ذكرتُ انصرفَ وأنا أحسب أنه قد اقتنـع، لكنه لما خرج قال: "حسنًا يا أستاذي، لكن ماذا عسى المرء أن يفعل إن كان مكلَّفًا لا خيار له في هذا الأمر؟".

ليس هناك مقام سـوى النبوة يجب على صاحبه إعلانُه والإبلاغ عنه، حتى وإن كان هذا الشـخص أبا حنيفة أو الشافعيَّ فليس من وظائفه إبلاغ الناس عن كونه أبا حنيفة أو الشـافعيَّ، والمهديةُ كذلك؛ لكن يتعذر إقناع من حبسـوا عقولهم في تصوّرٍ كهذا؛ نسـأل الله أن يهدي كل مغرور أنانيّ إلى الصراط المستقيم.

وأذكِّـرُ أخيـرًا إلـى احتمـال وجود مثل هـؤلاء المدَّعيـن ضمن دائرة صالحـة مركزُها المحو والتواضـع والإخـلاص ونكران الذات، وإقناعُهم

أصعب لأنهم يشتقون أنانيتهم الذاتية من أنانية الجماعة، فيقول أحدهم: "كنتُ إلى الآن تلميذًا، وكان لفلان ألف من الملائكة والأرواح، ثم إن تسعمائة منهم فارقوه وأتوني".

وهناك أمثلة كثيرة مختلفة في كل عصر على مثل هؤلاء الذين قد يتعرضون للإغواء والخداع، ويصبحون أسرى للنفس والشيطان.

فلا يغيبنَّ عن خَلَدِ أحدكم أن انتشار الأشواك حتى في وقت نبات البذور وازديان البساتين بالورود أمر محتمل، فالحذر واليقظة والبصيرة وإن كنت تسير في بستانٍ كهذا.

أجل، ظهورُ الضالّين المُضِلّين وارد في كلّ وقت، فيتبعهم السذّجُ من الناس؛ وكما تنمو الأشواك مع الورود فقد يصخب العقعق عندما تغرّد البلابل، وربما تعجب العقعقةُ أناسًا لم يسمعوا شدو البلبل الرائع ولم تألفه آذانهم.

إنّ سدّ الباب لئلا ينخدع أحد بادعاءات هؤلاء يقتضي أن نتحرك بحذر ويقظة دائمة، وأن ننظر إلى الحوادث ونرصدها ألف ألف مرة بفِراسةٍ كتلك التي عند سيدنا أبي بكر الصديق وسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

المبالغة في المدح وأضرارُها

سؤال: قد يقوم إنسانٌ بعملٍ خَيِّرٍ يستحق عليه التبجيل والتقدير، فنتوجَّه إليه بكل الاحترام والتقدير لعل ذلك يحضّه ويشجعه على المزيد، لكن ذلك قد يدفعه إلى الغرور والفخر؛ فما الأمور التي لا بدّ من مراعاتها في هذا الصدد؟

الجواب: قد يتخلل الثناءَ والتقديرَ والتبجيلَ على النجاح شيءٌ من المغالاة وتفريطٌ في التوازن والاعتدال؛ ومن السنن الإلهية: أنّ مَن يُطْرِ شخصًا يعاقب بخلاف مقصده وغايته؛ حتى إنك إن بالغتَ في مدح شخصٍ حُبُّه واجبٌ عليك وحقٌّ له، فقد تُعرِّض نفسك لما ينزله بك القدرُ الإلهي من عقاب؛ فهذا سلوكٌ يبغضه الله، فكُن متوازنًا في الحديث عن حبّك وإعجابك بمَن تحب وتعجب لئلا تقع في المغالاة بمدحه؛ فمن أطرَى امرأً فأفرط وادعى أنه يطير في الهواء ويمشي على الماء ويطوي الزمان والمكان، فقد يقول الله له: "ليس عبدي هذا كما زعمتَ، فقد رفعتَه فوق قدره"، فيعاقبك سبحانه وتعالى بما يخالف مقصودك.

وهكذا جعلتَ الممدوح هدفًا للحُسّاد

من سلبيات الإطراء أنك حين ترفع امرأً إلى عنان السماء تثير حفيظة الآخرين عليه، فيدفعهم هذا إلى محاولة الحطِّ من قدره؛ فأنت من أنشأ جبهاتٍ معادية لمن كنت تُغدق عليه المدح والثناء، فحذار من الإفراط

فـي الحديـث عمّـن تحب، واعلم أن إطـراءك له أمام الآخريـن يثير فيهم الحسد والغيرة.

مثلًا قد يحب امرؤٌ عالمًا جليلًا لأنّه عرَّفه حقيقة الإسـلام والإيمان، ويتأثـر كثيـرًا عند ذكره، ويجيش قلبه جيشـانًا بمشـاعر المنّة والشـكر له، وينطلـق لسـانه قائلًا: "ما أكثـرَ الحقائقَ التي تعلّمْناها منك، واتّسَـعَتْ بها آفاقنـا! فبـك عرفنـا مفخـرة الإنسـانية محمدًا ﷺ حـقَّ المعرفـة!"؛ ولكن لا ينبغي ألبتة أن تسوقه هذه المشاعر إلى المغالاة في مدحه كوصفه بالنبيّ والرسول، أو الدخول في مغالطاتٍ كرفعه إلى مقامات ومراتب لم تخطر قـطّ ببـال هذا الرجل العظيم ولـم تـرد على خاطره مطلقًا؛ ثم إنّ نعت هذا الشـخص المبارك بهذه الصفات والدرجات السـامية بين يدي أتباع رجل عظيـم آخر قد يثير لديهم مشـاعر الغيرة والحسـد، فيصـدر عنهم ردّ فعل سلبي تجاهكم وتجاه مَن تحبّون وتوقّرون.

على المرء أن يكون يقِظًا حذرًا حتّى عند حديثه عن مفخرة الإنسانية محمـد ﷺ -بأبـي هـو وأمّـي-؛ نعـم، هو سـفينة نجاتنا وسـبيل سـعادتنا فـي الدارين، وهو من أزال الغشـاوة عن وجه الوجود، وكشَـف الأسـرار المكنونـة فـي روح الأشـياء، وجعل من هـذا العالم الغـارق في الفوضى والاضطـراب جسـرًا إلـى جنّاتِ النعيـم، وها نحن في جوّ إيماني سـاحر نتنسّـم بفضله هو عَبَقَ السـكينة والطمأنينة على حسـب عُمْقِ إيماننا، لكن كله لا يسوِّغ أن نسند إليه -معاذ الله- صفةً من صفات الألوهية ألبتة.

الحمد لله وحده

أمّـا مسـألة تبجيـل الذات الإلهيـة وتعظيمهـا فقل فيها ما تشـاء؛ لأنه لمـا اسـتحال أن يكـون لله تعالـى شـريكٌ أي لا ضـدّ له ولا نـدّ، لم يكن لأحدٍ أن يقول: "لِمَ تمدح سيدَك فحسب"؛ فسيدُك هو هو سيده، وهو هو

سيد السادات، وهو هو سيّدُ سيّدِ البشر ﷺ، يقول ﷺ: "**السَّيِّدُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى**"(٢٨)، فهو سيّد العالمين، فامدحوه وعظِّموه ما بدا لكم؛ بل كونوا أمام شمس الشموس كيَراعة خَبَا نُورها بطلوع الشمس، وإلا استحالت معرفته حقّ المعرفة؛ لأن رؤيته ومعرفته بعظمته وجلاله رهن بأن يدرك الانسانُ أنه عدمٌ، وما أحسنَ قول من قال:

أنى تتجلى لعبدٍ يقول ها أنا ذا
فلن أراك ظاهرًا حتى أكون غائبا

لا يمكن أن يُعرَض شيئان معًا على ستارة واحدة، فلا بدّ أن تغدو عَدَمًا حتى يتأتّى إدراكُكَ للموجود الحق وشهودُه ومعرفتُه.

على الإنسان أن يقرّ بأن وجوده ما هو إلا ظلٌّ حتى يرى الأصل؛ وثمّة كثير من عباد الله كالأنبياء العظام والأصفياء الفِخام والأولياء الكرام اجتهدوا وسعوا ليتحقق فيهم هذا المعنى، أما نحن فَوَراءهم، بل شتان شتان... ومَن يدري فلعلّ مَن يُظِلُّهم الله في ظِلّه يومَ القيامة هم من كانوا في الدنيا كالظلال، فيقول الله لهم: "كنتم كالظلّ في الدنيا، فتعالوا أُظِلّكم في ظلّي يومَ لا ظلّ إلا ظِلّي".

أجل، لنا أن نقول مثل هذا في الله ﷻ، أما من سواه تعالى فلنَلزم الدقة والحذر في تقديرنا وتبجيلنا لهم، فالحقّ أنه ما من حمدٍ أو ثناءٍ على المخلوق إلا وهو حقٌّ له ﷻ؛ فمِمّن صدر ما تدبّجه الكلمات من ثناء ولِمَن وكيف ومتى وأيًّا كانت الظروف فهو حقّ خالصٌ لله تعالى.

أليس في قراءتنا للآية الكريمة: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ نحو أربعين مرّة في اليوم تعبير عن هذا المعنى؟ ولما كانت اللامُ في كلمة "الحمد"

(٢٨) سنن أبي داود، الأدب، ٩.

للاستغراق دلّ أن كلّ حمدٍ من أيّ حامد لأي محمود هو حمدٌ لله تعالى؛ فكلّ حمدٍ وثناءٍ على من نحبّ إنّما هو في الواقع لله تعالى الذي خَلقَنا نحن ومَن نحبّ.

ظَلومٌ أشبَهَ المظلومَ

والخلاصة أن علينا أن نكون على وعي وحذر بالغ في حديثنا حتى عن شخصيات عظيمة أهلٍ للتبجيل والتعظيم، وأن نتجنبَ الحديثَ عن معتقدنا وآرائنا فيهم أمام أناسٍ قد يصدر عنهم ردّ فعل لا تُحمد عقباه؛ لأن في استثارة مشاعر الحسد والغيرة في نفوس الآخرين تكثيرًا لعدد جبهات العداء لنا، وزجًّا للأبرياء في الذنب؛ فالحسد يدفع الحاسد إلى الذنب ويحبط أعماله؛ قال بعض الحكماء: "ما رأيتُ ظالمًا أَشبهَ بمظلومٍ من الحاسد"؛ أي إن الحاسد ظالم، إلا أنه بحالته هذه قد تردّى إلى حالة تستدعي الشفقة عليه؛ فلا ينبغي أن نُلجئ أحدًا إلى مثل هذا الحال.

ويبعُد أن يراعِي الجميعُ مثلَ هذه الدقة في مسألة دقيقة كهذه، لكن لا بدّ أن تكون سَمْتًا لمَن لهم مكانة خاصة بين الناس.

أعداء العش السعيد

ســؤال: رُوِيَ في الصحيح أنّ مِن أحبّ الأعمال إلى الشــيطان التفرقةَ بين الزوجين وهدم عش الزوجية، فما نصيحتكم للأزواج لكيلا يقعوا في مثل هذا الفخ، ولئلا تؤول الحياة الزوجية إلى الطلاق أبغضِ الحلال إلى الله؟

الجــواب: إن الشــيطان هو الداعي إلى كلّ شــر، المدمِّـر لكل ما هو جميل، قال الله تعالى:

﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ (سُورَةُ النَّحْلِ: ١٦/٦٣).

وقال: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ٧/٢٠).

دلَّت هاتان الآيتان وأمثالهما على أن سيئ الأعمال من شأن الشيطان.

العدو الخفي اللدود

وفـي آيـة أخرى ينعـت القرآن الكريـم الشـيطانَ بوصـف "الغَرُور"، فيقول: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ (سُورَةُ لُقْمَانَ: ٣١/٣٣).

لفظة "الغَرور" صيغة مبالغة؛ أي "كثير الغرر"؛ وهذا يدل أن للشـيطان حيـلًا فظيعـة تَحار دونها العقول والألباب، فهو يدسّ سـمومه ودسائسـه وحيلـه فـي عقل ابـن آدم وصدره، وأفـكاره وأمانيه، ويجتهـد في تضليله والتغرير به.

وفي آيةٍ أخرى وُصف الشيطان بـ"الخَنَّاس"؛ لأنه عدو خفي يكرّ ويفرّ؛ أي يتراجع ويتقهقر، فإن وجد الفرصة مواتية انقضّ على الإنسان، فيأتيه باسم الخير ويتدثر بالحقّ، ويزيّن له كلّ ما هو سيئ وقبيح، ويسعى إلى إضلاله في كلّ حين، ونجد الإنسان أحيانًا يقع تحت إِسَار الشيطان وينساق بوسوسته، ورغم هذا يعد نفسه مخطط كل شيء وصانعه، فيقول: "أنا مَن فكر وقرر وقدر وفعل"، وكأنه فعل كل هذا وحده، فمِن أخطر الدسائس الشيطانية ما يجعل الإنسانَ ينكر وجود الشيطان كما يقول الأستاذ بديع الزمان.

وتقوم النفس المتجذرة في ماهية الإنسان بوظيفة مركز الاتصالات للشيطان، ففي القرآن الكريم: ﴿**إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي**﴾ (سُورَةُ يُوسُفَ: ١٢/٥٣)، فإن النفس الأمارة تلازم الإنسان وتأمره بالشر على الدوام، ولمزيد البيان إليكم هذا التمثيل: كأن الشيطان يرسل إشارات وشفرات متتالية إلى الإنسان كشفرة مورس، فتحلّ النفسُ هذه الشفرات وتُمليها على الإنسان، فيتلقى الإنسان هذه الإشارات الواردة من الشيطان أو النفس الأمارة ويتحرك وفقًا لها، أي ينساق لها ويرتكب كثيرًا من الآثام، ومن أعظمها هدمُ عشّ الزوجية وتشرُّدُ الأطفال ووقوعُهم في حالة يرثى لها ماديًّا ومعنويًّا.

حجمُ الإفساد

لاحظنا في السؤال أن الشيطان لا يفرح بشيء فرحَه بالطلاق وهدم عش الزوجية، يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "**إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ**

كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا، ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ"[٢٩].

"**إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ**"، في هذا إشارة إلى أماكن تكثر الشياطين فيها ويكثر إغواؤهم وإضلالهم لأهلها، أي أكثر الأماكن التي لا يبرحها الشيطان هي الشواطئ، وهي مَظَانُّ شتى أنواع الشرور والمفاسد.

"**ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ**"، فبعض هؤلاء الأعوان يحمل الإنسان على أكل الربا، ومنهم من يزيّن للعين لتنظر إلى الحرام، فيثير شهواته البهيمية، ويجعله يجري وراء غرائزه، ومنهم من يزيّن لِلّسان الكذبَ فيكذب، أو الغيبةَ والافتراء فيفعل، وربما يقوم كل منهم بإغواء الناس وإضلالهم في مجال استعداده ومهارته الخاصة.

"**فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا**"، هو يُسرّ في الواقع بكل تلك الذنوب والآثام؛ لأن المعاصي بريد الكفر، إذ ينكت الذنب في القلب نكتة سوداء، ويباعد بين العبد وربه خطوة، بيد أنَّ ما ينتظره الشيطان من أعوانه أكثر وأكثر.

"**ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ**"، وفي هذا إشارة إلى مصيبة كبرى وحادثة اجتماعية فظيعة انتشرت اليوم.

ومعنى هذا أن هدم عش الزوجية له أهمية عظمى عند الشيطان حتى إنه لا يعبأ معه بأعوانه الذين ساقوا الناس إلى الشرور والآثام، ويخص من فرَّق بين المرء وزوجِه بالثناء، ومن يدري لعله يكافئه على ما فعل!.

---

(٢٩) صحيح مسلم، صفات المنافقين، ٦٧.

ولكن لِمَ يحظى هذا الأمر بكلّ تلك الأهمية عند الشيطان؟

ذلك لأنّ الضرر لا يمس الزوجين فقط، بل يمتد إلى أطفالهما وأصولهما وأقاربهما وأحبابهما، بل يمكن القول بأن الضرر يمس المجتمع بأسره بمعنىً ما؛ فإن الأُسَر عندما تتفكك -وهي جُزَيئاتُ المجتمع- تتوالى التصدعات والتشققات في المجتمع، ويغدو عرضة لتشوهات خطيرة، ثم إن فرقة الزوجين ستغدو نموذجًا سيئًا، فتسري عدوى هذه الجرثومة في أوصال البيوت الأخرى، ويظهر من هذا كله أن ما يقوم به الشيطان قد يبدو صغيرًا في الظاهر، والحق أنه يهدم الكثير بهذا العمل.

علينا ألا ننسى أن الشيطان سيفعل كلّ ما بوسعه للإيقاع بين الزوجين، ولن يضيّع لحظة ليحوِّل عشًّا سعيدًا مؤهلًا لأن يكون روضة من رياض الجنة إلى حفرة من حُفر جهنم، وسيحاول في سبيل ذلك هو ومن تحكم بهم ووجّههم كما شاء من أبالسة الإنس للإضرار بمؤسسة الأسرة.

ولا جرم أن أكثر المتضررين في هذا العش الذي يقع فريسة للتعارض والتساقط هم الأطفال؛ لأن الأسرة التي يخيم عليها النزاع والجدال والشقاق والنفاق ليست بيئة ملائمة لتنشئة أطفالٍ ذوي قوام روحي سليم.

أجل، إنّ فحش القول بين الوالدين في بيت ملؤه النزاع والشقاق سَيَقَرّ في عقل الطفل ويقصم ظهره ويخيب أمله في والديه، وينزع عنهما لباس الهيبة والتقدير، وشيئًا فشيئًا يخسر الوالدان احترام الطفل وتقديره لهما جذريًّا، وهذا مشهد أدعى لفرح الشيطان عدونا اللدود!

آخر الدواء: الطلاق

يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "**أَبْغَضُ الْحَلَالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى الطَّلَاقُ**"[٣٠].

يشير هذا الحديث إلى أن فرقة الزوجين ممقوتة مطلقًا عند الله تبارك وتعالى، لذا يتعين أن يتزود الزوجان في البداية بالمعلومات اللازمة حول النكاح حذرًا من هذا المآل العسير.

ولو أن لي من الأمر شيئًا لَما أذنت بالزواج لأحدٍ دون أن يُلمّ ببعض الكتب ويشارك في بعض الدورات حول هذه المسألة، ولألزمته بدورة تدريبية شهرًا أو شهرين على الأقل ليتعلم أهمية الحياة الزوجية، ومَهامّها وحقوقها وواجباتها، وماهية العلاقة بين الزوجين، وتربية الأطفال؛ لأنه يتعذر بناء عش زوجي صحّي دون معرفة الزوج بمسؤوليات الرجل، ودون معرفة الأنثى بمقام ربّة المنزل.

وينبغي أن تُبنى مسألة الزواج في البداية على أساس العقل والمنطق لكيلا يسلك الزوجان طريقًا يؤدي بهما إلى الطلاق والعياذ بالله؛ لأن الزواج أمر لا يقبل العاطفية أبدًا، بل لا بدّ مع المشاعر من إعمال المنطق إلى أقصى حدّ.

أجل، من الصعوبة بمكان أن يستمر الزواج بأمان إن قام على الجمال فقط، فإنه ما إن تزول هذه الصفة حتى تتدمر الحياة الزوجية؛ فرغم أن المشاعر لها قدْرها إلا أنه لا يجوز ألبتة أن نُغْفِلَ دور العقل والمنطق والتعقل، وأن نمعن النظر قبل الزواج، بل لا ينبغي أن يكتفي الخاطبُ

(٣٠) سنن أبي داود، الطلاق، ٣.

بأفكاره، بل عليه أن يطّلع على آراء من حوله من أصحاب الفكر والرأي.

ولا ينبغي إغفال فترة الخِطْبة، فهي ذات مكانة في عاداتنا، وهي فترة مهمة جدًّا لمعرفة مدى التواؤم والتوافق بينهما، على أن يكون ذلك في حدود الشرع.

وبعد الزواج لا بدّ من التمسك بأحكام الدين الحنيف للحفاظ على منظومة الأسرة، ولا بد من العناية الكبيرة بحماية أسرارها وخصوصياتها، فإن ذلك يحول دون أعوان الشيطان وشياطين الإنس من ولوج هذا العُش وتدميره، هذا في الإعدادات المادية والمعنوية الواقية الحافظة، ثم إنه من الأهمية بمكان اللجوء دائمًا إلى العناية الإلهية بحصن معنوي من الأدعية حتى يمكن لهذا العش السعيد أن يستمر.

وقد يستحيل العيشُ بين الزوجين ويظهر الخلاف والشقاق بينهما رغم الحيطة والإعداد التام والحيلولة دون أي فراغ عقلي ومنطقي؛ فيستغل الشيطان وأعوانُه من الجن والإنس هذا الوضعَ، ويسلكون مسالكهم للإيقاع بين الزوجين، فيقتنعان باستحالة استمرار الزواج في هذه الظروف، ويجدان الطلاق حلًّا أخيرًا لزواجٍ لا طمأنينة فيه ولا أمل فيه للتعايش، وقد فصّل القرآن الكريم المسألة في عشرات الآيات وهو يتحدث عن مآل الزوجين إذا آل بهما الأمر إلى هذه العاقبة الوخيمة، بل في القرآن سورة اسمها سورة الطلاق؛ وجاء مفخرة الإنسانية محمد ﷺ ليفسّر ويبيّن في سنته السنية هذه الأحكام، ثم اجتهد الصحابة الكرام والفقهاء العظام من بعدهم، فكانت لهم استنباطات شتى في المسألة.

دلّ ذلك أن عنايةً بهذا القدر بمسألة الطلاق تفيد أنها مسألة خطيرة، ولكن ثمة ظروف تستوجب الطلاق بوصفه حلًّا أخيرًا إذا تعقد الأمر،

فإن سُدت كل الطرق أمام هذا الزواج بعد أن جرّبت شتى أنواع الحلول، ولا أمل في دوام هذا العش، جاز التفكير في الطلاق بمنأى عن دوافع العاطفة والنفس، وذلك في ضوء الحق والشرع، وبإشراف العقل والمنطق والضمير.

المحاسبة والاستغفار

سؤال: ما المعايير التي ينبغي أن يلتزم بها المؤمن عند التعرّض للبلايا والمصائب حتى يمكنه اجتيازها بشكل يتلاءم مع سلوكه الإيماني؟

الجواب: يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿**مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّٰهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ**﴾ (سُورَةُ النِّسَاءِ: ٧٩/٤)، فكلّ مَن يصدِّق بهذا البيان عليه أن يعزوَ أولًا كلَّ مصيبة وبليّة ألمّت به إلى أخطائه وذنوبه، فمثلًا لو سقط ما في يدِك من طبقٍ أو كوبٍ على الأرض فاعلم أن هذا من نفسك، واحمله على انحرافٍ في تعقلك أو تصورك أو تخيّلك في تلك اللحظة، ثم اسأل نفسك: "هل فعلت ما لا يليق بالحضرة الإلهية حتى أُصبت بمثل هذا؟"، لأنه لا تقع أي حادثة في الكون عبثًا؛ فلو نظرنا في الحياة بإمعان فسندرك أنّ أية مصيبة ولو صغيرة جدًّا تعد إنذارًا أو تحذيرًا، وفي كل حادثة عبرة، فإنْ فهمها الإنسان وتوجّه إلى الله وعمل من الخير ما يكون كفارة لهذا البلاء، فقد يكون هذا وسيلةً لدفع ما هو أعظم من الحوادث والبلايا بفضل الله وعنايته؛ أجل، إنّ كل مصيبة من هذا النوع بمنزلة تنبيه وكفارة في الوقت ذاته، فالكوبُ المكسور مثلًا قد يحطِّم سلسلةً من البلايا والمصائب، ويطهِّر الإنسان من بعض ذنوبه، كما جاء في الحديث الشريف: "**مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ وَلَا حَزَنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ الله بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**"[٣١].

---

(٣١) صحيح البخاري، المرضى، ١؛ صحيح مسلم، البر والصلة، ٤٩.

البحث عن المجرم الحقيقيّ

والواقع أننا لا نستطيع أن ندرك دائمًا بشكل جليّ صريح ما وراء الحوادث من أسباب، لكن على القلب المؤمن أن يفتِّش عن أخطائه وعيوبه أولًا حتى في الحوادث الغامضة التي نزلت به، فمَن يتهم نفسه يكون قد خطا خطوة مهمة في البحث عن المجرم الحقيقي، أمّا إن برّأ نفسه وراح يبحث عن المجرم في الخارج فلن يجده وإن قضى عمره كلّه في البحث عنه، وبذلك ينفق عمره في اتهام الآخرين.

وفي هذا يقول الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي: "والآن عرفتُ السبب الحقيقي في قيامهم بظلمي وتعذيبي، أقول وكلي أسف: إن ذنبي هو اتخاذي خدماتي القرآنية وسيلة للترقي المعنوي والكمالات الروحية"(٣٢).

إنّ ما ذكره هذا الإنسان الكامل لَيكشف لنا عن مدى عمق محاسبته لنفسه، ومعنى كلامه أنه لا ينبغي أن نتّخذ من خدمة الإيمان والقرآن سبيلًا إلى الألطاف والعطايا الإلهية أو طريقًا لبلوغ مرتبة الولاية أو حتى للوصول إلى غايات سامية كالفوز بالجنة والنجاة من النار، فمَن جعل هذه الأمور منتهى غاياته في خدمته الإيمانية والقرآنية أفسد الأمر؛ لذا لا بدّ أن تكون غايتنا الأمُّ هي تحقيق الإخلاص ونيل الرضا الإلهي، ولا ينبغي أن تتغلب الرغبة في دخول الجنة والخوفُ من النار على تحقيق العبودية الحقيقية، ولا جرم أن الله تعالى سيجزينا بالثواب الجزيل على ما قمنا به من أعمالٍ مزدانة بالإخلاص، هذا وإنّ عباداتنا قاصرة محدودة أما نعم الله تعالى فهي كثيرةٌ لا تُعَدّ ولا تُحصى، هب أنك مِلك العالم ولديك تريليونات، فلا بدّ أن يعتريك الخوف عندما تنفق منها لأن الإنفاق ينقص

(٣٢) سعيد النورسي: السيرة الذاتية، ص ٤٧٥.

ما في يدك، أمّا نعم الله تعالى فهي كثيرة حتى لو حاول العادّ إحصاءها لما استطاع إلى ذلك سبيلًا، فما تسألونه ليس شيئًا مقارنة بما سيؤتيكم الله تعالى من فضله.

لا بدّ من تجنب أي نوع من الشكوى

إن مَن لا يستطيع إدراك الأسباب الحقيقية وراء البلايا والمصائب التي يتعرض لها تبدر منه كلمات تنمّ عن شكوى الله تعالى إلى الناس؛ إن للإنسان أن يشكو مَن ظلمه إلى المسؤولين والأوساط العامة إحقاقًا للحق، أي مَن لحق به الظلم له أن يشكو مَن ظلمه إلى الحقّ والخلق، ثم ينتظر حكم الحقّ تعالى وما يجريه على ألسنة الناس، لكن الإنسان ليس له ألبتة أن يشكو الله ﷻ إلى خلقه، وناهيك عن القول الصريح فإن التأفف والتضجر من المصائب والبلايا يُعَدّ أيضًا شكوى، فليتجنّب العبد أي كلمة أو سلوك يوحي بالشكوى من الله ﷻ صراحةً أو ضمنًا.

أما عدّ الإنسان هذا البلاء أو تلك المصيبة من نفسه فأمر مرهونٌ بمحاسبته لنفسه محاسبة شديدة، والمحاسبة رهنٌ بإيمانٍ بالله والآخرة راسخٍ في القلوب.

وفي الأثر عن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ: "**حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا**"(٣٣).

وفي هذا دلالة على أنّ محاسبة النفس ذات علاقة وثيقة بالإيمان بالحساب في الآخرة.

ولو تأملنا أوراد الأئمة العظام وأذكارهم لرأينا أنهم قد أنفقوا حياتهم في محاسبة شديدة للنفس: محاسبةٍ نابعة من خشية الحساب في المحكمة

(٣٣) عبد الله بن المبارك: الزهد، ص ١٠٣؛ ابن أبي شيبة: المصنف، ٩٦/٧.

الإلهية الكبرى، وربما لم نحاسب أنفسنا ونزجرها عن غيّها طول عمرنا كما كان يحاسبها الشيخ عبد القادر الجيلاني ﷺ في وردٍ واحد من أوراده.

وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلي أيضًا يزجر نفسه زجرًا عنيفًا، ثم لا يغلق باب الرجاء، فيتوجّه إلى الله طالبًا العفو والمغفرة بما معناه: "كم عبدٍ لجأ إليك وما عاد خالي الوفاض"، ومن ذلك قوله:

"يا ذا الجلال والإكرام، يا محيطًا بالليالي والأيام، أشكو إليك من غمّ الحجاب وسوء الحساب وشدة العذاب، وإن ذلك لواقعٌ ما له من دافعٍ إن لم ترحمني، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، ولقد شكا إليك يعقوب فخلّصتَه من حزنه، ورددتَ عليه ما ذهب من بصره، وجمعتَ بينه وبين أولاده... ولقد ناداك نوحٌ من قبل فنجّيتَه من كربه... ولقد ناداك أيوب من بعد فكشفتَ ما به من ضُرّه... ولقد ناداك يونس فنجّيتَه من غَمّه... ولقد ناداك زكريا فوهبتَ له ولدًا من صلبه بعد إياس أهله وكبر سنه... ولقد علمتَ ما نزل بإبراهيم خليلك فأنقذتَه من نار عدوه... وأنجيتَ لوطًا وأهلَه من العذاب النازل بقومه... فها أنا ذا عبدُك، إن تعذبني بجميع ما علمتُ من عذابك فأنا حقيقٌ به، وإن ترحمني كما رحمتَهم مع عظيم إجرامي فأنت أولى بذلك وأَحَقُّ مَن أكرمَ به، فليس كرمُك مخصوصًا بمن أطاعك وأقبل عليك، بل هو مبذولٌ بالسَّبق لمن شئتَ من خلقك وإن عصاك وأعرض عنك"[٣٤].

وأذكّر هنا بوِرْد مهمّ جاء في "القلوب الضارعة"[٣٥]، ينبغي الأخذ به

(٣٤) القلوب الضارعة، ص ٣١١.

(٣٥) القلوب الضارعة: هو كتاب يجمع بين دفتيه مختاراتٍ من أدعية سيد المرسلين ﷺ وإخوانه من النبيين والصحابة الكرام وكبار الأولياء والصالحين. أشرف على جمعها الأستاذ محمد فتح الله كولن ومعظم هذه الأدعية التي جاءت بهذا الكتاب مقتبسةٌ من كتاب "مجموعة الأحزاب" للشيخ ضياء الدين الكومشخانوي من علماء العهد الأخير للدولة العثمانية.

في هذا الباب، وهو "حِزب الاستغفار الأسبوعي" للإمام الحسن البصري رحمه الله[٣٦]، فقد أفردت هذه الشخصيةُ العظيمة استغفارًا خاصًّا لكل يوم في الأسبوع، وقد بالغ في ذكر عيوبه وهوّل من أمر ذنوبه، والحسن البصري كما هو معروف علَمٌ من أكابر التابعين، نهل من نبع الصحابة، وتصدى للفِرَق الباطلة المختلفة في البصرة حتى دحرَها، ويمكن أن يقال عنه: إنه غلّق أبوابَه عن الذنوب والآثام حتى في رؤاه وأحلامه، وممن نهل من علم هذا البطل الإمامُ الأعظم أبو حنيفة النعمان عظيم الشأن؛ ومع تلك الخصائص كلها نراه يهوّل من أمر ذنوبه وعيوبه حتى إنك لتحسب أنه أعتى مجرم اقترف ذنبًا في الدنيا، فتراه يتوجّه إلى الله بلسانِ المفلس وحالِهِ وكأنه من ذوي الإصرار على اقتراف الذنوب، وهكذا يمضي في محاسبة نفسه كل يوم.

المحاسبة تفضي إلى الاستغفار

محاسبة النفس على الأخطاء والعيوب تحمل على التوبة والاستغفار، ففي سورة الفرقان أورد الحقُّ تعالى ضروبًا من الذنوب، وأوعد مرتكبيها بالعذاب في الآخرة، ثم إنه -رغم ما ارتكبوا من الموبقات- بَشَّرهم بما سيحظَون به في الآخرة إن هم أنابوا إلى ربهم وثابوا إليه مرة أخرى:

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (سُورَةُ الفُرْقَانِ: ٢٥/٧٠).

دلت هذه الآية أنّ مَن تشوّهت روحه بما ارتكب من الذنوب إن تاب واستغفر من فوره، وعقد العزم على التطهر الحقيقي، وجدّد إيمانه، ولازَم العمل الصالح، بدّل الله تعالى سيئاته حسنات؛ أجل،

(٣٦) القلوب الضارعة، ص ١٤٢.

سيمحو الله ﷻ ذنوب هذا العبد أيًّا كانت، سواء اقترفتها يداه وقدماه أم عيناه وأذناه، أو كانت امتعاضًا في وجهه أو إيماءً، فإنه سبحانه يمحوها جميعًا ويبدّلها حسنات.

وأشار الأستاذ بديع الزمان إلى معنى تحتمله هذه الآية: يبدّل الله قابليات الشر لدى الإنسان إلى قابليات للخير(٣٧)؛ وهذا يعني أن التوجه إلى الله تعالى بالتوبة والإنابة والأوبة يترتب عليه أن تتبدل ميول الشر في طبيعة الإنسان إلى ميول للخير والحسنات.

الاستغفار: ماء الحياة للبعث من جديد

عن الزبير بن العوام رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "**مَنْ أَحَبَّ أَنْ تَسُرَّهُ صَحِيفَتُهُ، فَلْيُكْثِرْ فِيهَا مِنَ الِاسْتِغْفَارِ**"(٣٨).

وقد بلغ سيد الأنام عليه أفضل التحيات وأكمل التسليمات ذرى هذا الأفق، يقول: "**وَاللهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً** (وفي رواية: **مِائَةَ مَرَّةٍ**) "(٣٩).

وتفسير هذا الأمر برقيّه الدائم في أفق معرفته ممكن، وكذا تفسيره بأنه أسوة رائد لأمته، فكلّ راعٍ في جماعة أو لجنة تغدو سلوكياته وتصرفاته الطيبة والقبيحة قدوة لمن خلفه؛ فلو أن مدير المؤسسة أرسى مبادئ نفعية يتحرى بها منافعه الشخصية، فسيجرّ الناس من ورائه إلى السرقة، وإن تحرّى الخير والبرّ على الدوام كان عاملًا مؤثرًا في توجيههم إلى الخير؛ وبهذه النظرة يمكننا أن نقول: إن رسول الله ﷺ كان يستغفر الله مائة مرة

(٣٧) سعيد النورسي: الكلمات، الكلمة الثالثة والعشرون، المبحث الثاني، ص ٣٥٨.

(٣٨) الطبراني: **المعجم الأوسط**، ٢٥٦/١؛ البيهقي: **شعب الإيمان**، ١٥٢/٢.

(٣٩) صحيح البخاري، الدعوات، ٣؛ صحيح مسلم، الذكر والدعاء، ٤١.

في اليوم، فوجَّه أتباعه بسنّته هذه إلى العروج بأجنحة الاستغفار نحو آفاق تحلّق فيها الملائكة.

نعم إنّ المرء إذا ما أمعن النظر في نفسه ومسيرته وجد -أيًّا كان مستواه- كثيرًا من الأخطاء والعيوب تستوجب الاستغفار؛ فقد تكون عينه زلّت بنظرة أثناء سيره من مكان إلى آخر، أو ربما أُثني على أحدٍ أمامه فهمّ بالتهكم عليه والسخرية منه، وقد يكون سقط في مستنقع الغيبة وهو لا يعي... فالاستغفار الاستغفار، فإنّ أي ذنب من هذه الذنوب قد يُهلك صاحبه، فلنضع هذا نصب أعيننا.

وأشار الأستاذ النورسي إلى أن الذنوب وإن كانت صغيرة قد تُوبِق الإنسانَ، فقال: "احذر! انتبِه إلى موضع قدمك، وخَفْ من الهلاك، فلا تهلك في أَكلةٍ، أو كلمة، أو طَرْفة، أو شارة، أو بقلة، أو قبلة... فتَهلِكَ معك لطائفُك العظيمة"(٤٠).

والناس في الدنيا يُخضعون كل شيء لحساب دقيق حتى أعمالهم الدنيوية، فيقومون بدراسات واسعة حول مشروع ما، ويستثمرون أموالهم في ضوئها، ثم يقوِّمون الوارد والمصروف في آخر كلّ شهر، ويقررون هل هذا العمل مربحٌ أم لا؛ فإذا كنّا نقوم بهذه الحساب والتقويم في أمور الدنيا الفانية أليس حريًّا بنا أن نجعل لحياتنا الأبدية حسابًا أكبر وأعظم؟.

ومن المفيد هنا أن أنوه بأمر آخر في هذا الباب، يقول الأستاذ بديع الزمان ﷺ رحمة واسعة: "إن الدعاء والتوكل يمدّان ميلان الخير بقوة عظيمة، كما أن الاستغفار والتوبة يكسران ميلان الشر ويحدّان من تجاوزه"(٤١)؛ أي إن التوبة والاستغفار يحولان دون ميلان الإنسان

(٤٠) سعيد النورسي: اللمعات، اللمعة السابعة عشرة، المذكِّرة الرابعة عشرة، ص ١٨٧.
(٤١) سعيد النورسي: الكلمات، الكلمة السادسة والعشرون، المبحث الثاني، ص ٥٣٦.

إلى الشر، فهما مطرقة تشدخ رأس الذنوب والمعاصي وتقطع دابرها، والدعاء والتوكل يعززان ميول الإنسان إلى الخير؛ فمَن استمسك بجناحَي التوبة والاستغفار والدعاء والتوكل ارتقى مباشرة إلى أوج الكمالات الإنسانية، بل قد يجد نفسه خلف مفخرة الإنسانية محمد ﷺ؛ وأستدرك فأقول: ألا ليت الإنسان يقيم سدودًا تحول دون تخريب حياته القلبية والروحية ابتداء، فهذا أفضل من أن يشتغل بالترميم، لأن ترميم الشيء الخرِب وإعمارَه صعب جدًّا.

وأذكر أنني عندما ذهبت إلى مدينة "أَدِرْنَه" رأيتهم قد بدؤوا في ترميم مسجد "السليمية"، وقضيت هناك ست أو سبع سنوات ولم ينته الترميم، بينما تمّ بناء هذا المسجد في عهد السلطان سليم الثاني في ست سنوات؛ نعم، إن ترميم الشيء الخرب ليعود كما كان أصعب كثيرًا من إعادة بنائه؛ فليس من السهل إذًا إعادة صياغة مَنْ تشوّهَت رُوحه بذنوبه، فليحيَ المرء حياة تحول بينه وبين الدمار والخراب ابتداءً، ثم يمضي في حياته يقظًا حذرًا من الذنوب والآثام.